التحليل السيمائي للبنى السردية

رواية "حمامة سلام" للدكتور نجيب الكيلاني أنموذجا

الدكتور: بلقاسم دفة

قسم الأدب العربي

جامعة محمد خيضر بسكرة

مقدمة:

صـــدرت رواية "حمامة سلام" للكاتب العربي الألمعي الدكتور " نجيب الكيلاني" في طبعتها الرابعة سنة 1997م عن مؤسسة الرسالة ببيروت.

والدكـــتور نجيـــب الكيلاني أحد الأسماء البارزة في الأدب المعاصر. وقد تميز باسهاماته القصصية والروائية الكثيرة، فعرض لقضايا الفرد والمجتمع، والصراع بين الحق والباطل من خلال الرؤية الإسلامية، وبالأسلوب الروائي الإسلامي المتميز[1].

واهـــتم نجيـــب الكيلاني في بداية عهده بالأدب بعامة، والرواية والقصة بوجه خاص، ثم اتجـــه إلى الأدب الإسلامي منذ سنة 1952م، ولا سيما عندما قدم بحثه عن الشاعر محمد إقبال[2].

وقد صدرت له أعمال روائية كثيرة، تزيد عن الثلاثين، ولعل من أهمها: قاتل حمزة، حكايـــة جاد الله، حكاية طبيب، اهل الحميدية، رأس الشيطان، نور الله، الرجل الذي آمن، مواكب الأحرار، الذين يحترقون.

لا ريب أن المناهج النقدية الحديثة قد أولت اهتماما بالغا للنص الأدبي، وزودت الناقد بأدوات إجرائية تمكنه من اكتشاف كوامن النص وطاقاته التواصلية أو الإبلاغية، وجعلت النص الأدبي يتجدد بتجديد القراءة؛ القراءة التي تلقي الضوء على مواضع الشك، وتوسع مـــن دائرة اليقين، غير أن أول ما يواجه الدارس العربي اختياره للمنهج، بمعنى هل نأتي بمـــنهج غربـــي جاهـــز أفرزته ظروف علمية وثقافية، واجتماعية مغايرة للظروف التي أفرزت النص الأدبي الغربي، ونسقطه بكل حذافيره عليه؟ أم نأتي إلى النص نحاوره حتى إذا ما عثرنا على علامة أو أمارة لكشف أسراره، وإشارة نهتدي بها إلى خباياه ومضامينه ذهبنا عند ذلك نكيف منهجا مع معطيات النص الإبداعي العربي مراعين خصوصياته الجمالية.

- لقد اخترنا هذا النص وحاورناه فأومأ بالإشارة، ونطق بأسراره الدلالية، فرحنا عند ذلك نطبق المنهج السيميائي لمقاربته وفك شفراته اللغوية الإيجابية، واعتبرنا اللغة نظاما إشاريا (سيميائيا) يحرر المعنى من القيود المعجمية.

إنني لم أعتمد على المنهج السيميائي كليا، بل أخذت منه ما يلائم طبيعة النص العربي آخذا بواحدية الدال، وتعددية المدلول، ولم أتوقف عند المعنى المعجمي للدلالة، بل تجاوزت ذلك إلى البحث عن كوامن النص الإيحائية المضمرة خلف الإشارات والرموز.

وتناول البحث النقاط الآتية:

1- سيميائية العنوان 2- سيميائية الغلاف 3- سيميائية الأسماء 4- إشكالية الشخصية الرئيسة وتواترها في النص السردي 5- الوظائف السردية للشخصيات. 6- البناء الخارجي للشخصيات. 7- البناء الداخلي للشخصيات. 8- تقنيات السرد. 9- الأشكال السردية. 10- علاقة المكان بالسرد. 11- خصائص أسلوبية. بالإضافة إلى خاتمة.

1- سيميائية العنوان:

لقد اهتم علم السيمياء اهتماما واسعا بالعنوان في النصوص الأدبية، باعتباره علامة إجرائية ناجحة في مقاربة النص بغية استقرائه وتأويله.

لقد أبدى علم السيمياء "أهمية العنوان في دراسة النص الأدبي، وذلك نظرا للوظائف الأساسية التي تحدث عنها رومان جاكبسون (المرجعية والافهامية، والتناصية) التي تربطه بهذا الأخير وبالقارئ، ولن نبالغ إذا قلنا: إن العنوان يعتبر مفتاحا إجرائيا في التعامل مع النص في بعديه: الدلالي والرمزي"(3).

ولعل القارئ يدرك أن العنوان يرتبط أشد الارتباط بالنص الذي يعنونه؛ فهو –إن شئت- نص مختصر، يتعامل مع نص كبير يعكس كل أغواره وأبعاده. فالعنوان لذلك يعد من مظاهر الإسناد والربط. وبالتالي فالنص إذا كان بأفكاره المشتتة مسندا، فإن العنوان مسند إليه، فهو الفكرة العامة، بينما الخطاب النصي يشكل الأفكار الأساسية للفكرة العامة، التي يحتويها العنوان، والعنوان في رأي جون كوهن (J.cohen) يرتبط بالنص النثري الأدبي والعلمي(4)، لأن النثر يتسم بالانسجام والاتساق، بينما الشعر – ويخص القديم هنا – فيمكن أن يستغني عن العنوان، لأنه في الأغلب يفتقر إلى الفكرة العامة التي توحد النص،

فقد يكون مطلع القصيدة عنوانا، وهكذا فالعنوان في رأي كوهن يرتبط بالنثر أكثر منه في الشعر. إذ يقول:" نلاحظ مباشرة أن كل خطاب نثري علميا كان أم أدبيا، يتوفر دائما على عنوان، في حين أن الشعر يقبل الاستغناء عنه".(5)

إن العنوان بالنسبة للسيميائي يعد نواة أو مركزا للنص الأدبي، يمده بالمعنى النابض، يقـــول محمد مفتاح:" إن العنوان يمدنا بزاد ثمين لتفكيك النص ودراسته، ونقول هنا: إنه يقدم لنا معرفة كبرى لضبط انسجام النص وفهم ما غمض منه، إذ هو المحور الذي يتوالد ويتنامى ويعيد إنتاج نفسه و هو الذي يحدد هوية القصيدة فهو –إن صحت المشابهة بمثابة الرأس للجسد– والأساس الذي تبنى عليه، غير أنه إما أن يكون طويلا فيساعده على توقع المضـــمون الـــذي يتلوه، وإما أن يكون قصيرا، وحينئذ، فإنه لا بد من قرائن فوق لغوية توحي بما يتبعه".(6)

فالعـــنوان إذن هو الموجه الرئيس للنص بنوعيه، والعنوان من خلال طبيعته المرجعية والإحالـــية يتضـــمن غالـــبا أبعـــادا تناصـــية، فهو دال إشاري وإحالي يوحي إلى تداخل النصـــوص و تلاقحها و ارتباطها ببعض عبر المحاورة، و يعلن كذلك عن قصدية المبدع أو المنـــتج و أهدافـــه الإيديولوجـــية و الفنية، إنه إحالة تناصية و توضيح لما غمض من علامات و إشارات. فهو إذن النواة المتحركة التي خاط المؤلف عليها نسيج النص.

إن روايـــة "حمامة سلام" تتكون من مقطع واحد، تتألف بنيته من مسند (خبر)، يتمثل فـــي لفـــظ "حمامة" المضاف إلى "سلام".وهذا المضاف يفيد الاختصاص، أما المسند إليه (المبتدأ) فمحذوف، لوضوحه وسهولة تقديره، والتقدير مثلا: هذه حمامة سلام.

والحمامة التي خصت بهذه التسمية ينتظر منها أن تنشر السلام أو السلم في مكان ما.

وكثـــيرا ما يرمز بهذا الطائر الجميل إلى المرأة أو إلى السلم. ولعل الكاتب رمز بـــ "حمامـــة" إلـــيهما معا؛ فالحمامة –في هذه الرواية– يشار بها إلى سكينة بنت الشيخ عبد الحمـــيد عـــوض. وقـــد خاطبها زوجها عبد الودود رضوان بـــ "حمامة السلام" في نهاية الرواية، حيث يقول: "لم أذق طعم الحب الحقيقي إلا يوم أن رأيتك... يا حمامة السلام"(7)

ويتسم مقطع العنوان بوضوح المعنى وتشويق القارئ إلى معرفة كنه ذلك السلام ولمن سـيحمل؟ يتبيـــن القـــارئ بعد تتبع أحداث الرواية أن حمامة السلام، جسدت في شخص

"سكينة"، وهي شخصية رئيسة، تعد الشخصية الثانية من حيث الوظيفة التي أسندت إليها، ومن حيث تواترها على مسرح الأحداث، حيث بلغ ستا وستين (66) مرة. وقد أسهمت بقسط كبير بمعية بعض رجالات القرية في إطفاء نار الفتنة ودفع عملية السلام، وذلك بإقناع زوجها (عبد الودود) عن عدم مواصلة انتقامه من فلاحي القرية، وظلمهم والزج بهم في السجون، واقتناعه كذلك بعدالة قضية الفلاحين.

فالقضية الأساسية التي أثارها الروائي هي قضية الإقطاع وارتباطه بالأوضاع الاستعمارية، حيث كانت فئة من الناس تسيطر على المساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية، و تسخر الفلاحين و العمال، وتستغل جهودهم لفائدتها. ومن هنا تبرز مسألة الظلم الفادح الذي وقع على الفلاحين الذين اضطروا للعمل من أجل لقمة العيش، و الحفاظ على الحياة لهم و لأسرهم، ومع ذلك فلقد كان الفلاحون يسامون سوء المعاملة وشتى أنواع الأذى والإذلال والمهانة.

وجعل الكاتب شخصية " الحاج عبد الودود رضوان" مثلا لممارسات الإقطاع، وجعل منه شخصية رئيسة في الرواية تسعى للحصول على التوسع أكثر في الثروة. وأما علاقته بالفلاحين فهي علاقة السيد المتغطرس بالعبيد المهانين الذين يعاملون بأبشع ألوان الإذلال والاحتقار. وهم في نظر عبد الودود "كلاب لا تفهم، وبهائم لا تستحق الحياة، ولا ينفع معها إلا التجويع والسياط.

و إذا ما تتبعنا الأفكار الواردة في مقاطع الرواية نجدها ترتبط بالعنوان ارتباطا وثيقا، حيث تحدث الروائي في البداية عن الثراء العريض للحاج عبد الودود، ثم أخذ في الحديث عن مزروع القطن الذي أصيب بالإتلاف، و عن المستأجرين الذين صعب عليهم دفع مستحقات الإيجار لعبد الودود بعد إصابة محصولهم. ثم تحدث عن الطالب الأزهري الذي صعد إلى منبر المسجد الكبير عندما غاب الإمام، و أخذ يهاجم الذين لا يبرون بالفقراء، و ينعي على الظلم الذي ملأ السماء والأرض حتى وقع العالم في حرب طاحنة...حرب على رأسها هتلر..." (8) ثم عاد "إلى" الحديث عن الآفات التي أصابت القطن، وعن أصحاب الأرض الذين يأبون أن يتهاونوا قيد شعرة فيما قرروه من إيجارات" (9). و تكلم بعد ذلك عن صدى وأثر ذلك الخطاب في أهل القرية، و ما انجر عنه من اعتقالات للفلاحين الذين

تصـــدوا لعبد الودود. كما تحدث عن دور سكينة في إقناع زوجها بعدالة الفلاحين، ودور كـــل من الشيخ عبد الباقي (شيخ الطريقة الصوفية)، و أبناء عبد الودود المثقفين-الطبيب، المـــدرس، المحاســـب، المهـــندس-في إقناع طرفي النزاع بقبول الصلح. و بذلك هدأت العاصفة، و ساد القرية السلام و الأمن.

إن هـــذه الأفكـــار وغيرها تتعلق بالعنوان الذي يعني في بعض مكوناته الدلالية السلم والأمـــن، ويتضـــح من مضمونها أيديولوجية الكاتب المدافع عن الحق و العدل و السلام، وهي رؤية إسلامية.

ولذلـــك يمكـــن أن تقول: إن العنوان فني، فقد طوى كلاما كثيرا في جملة واحدة اتسمت بالاختصار.

2- سيميائية الغلاف:

إن الغلاف يعد بمثابة عتبة تحيط بالنص، من خلالها يعبر السيميائي إلى أغوار النص الرمزي والدلالي، و يدخل النص الموازي(pratexte).

والـــنص الموازي عند جيرار جنيت (G.genette) هو "ما يصنع به النص من نفســـه كـــتابا، ويقترح ذاته بهذه الصفة على قرائه، وعموما على الجمهور، أي ما يحيط بالكتاب من سياج أولي وعتبات بصرية ولغوية"[10].

ويحلله (جنيت) إلى النص المحيط والنص الفوقي. و يشمل النص المحيط كل ما يـــتعلق بالشـــكل الخارجـــي للكـــتاب كالصورة المصاحبة للغلاف. والصورة المصاحبة للغـــلاف-في هذه الرواية- صورة حمامة بيضاء باسطة جناحيها في الفضاء الذي تكتنفه سحب بيضاء، و هي تحلق فوق مساحة خضراء. و في الصورة مسحة من اللون الأبيض الذي يخالطه لون أحمر.

وصورة الحمامة البيضاء لاشك أنها ترمز إلى السلام، أو ترمز إلى امرأة – كما ذكرت في سيميائية العنوان- تقوم بدور نشر السلام كما يوحي العنوان بذلك.

أمـــا اللونان الأبيض و الأخضر المنتشران على مساحة أكبر فلعلهما إيماءة إلى التنبؤ بالسلم والأمن و الرخاء و السعادة... ولعل اللون الأحمر الذي كان له حيّز أقل على مســـاحة الغـــلاف يوحي إلى الفتنة و الدماء و الحرب؛ الحرب العالمية الثانية التي كانت

تـدور رحاهـا زمن أحداث الرواية. والفتنة التي كادت أن تعصف بقرية من مصر في خضـم تلـك الأحداث، و بسبب تفاقم الوضع الاجتماعي المزري، وغياب الوازع الديني والأخلاقـي. ولذلك يمكن القول: إن ما ترمز إليه صورة الغلاف يوشك أن يطابق عنوان الـرواية "حمامة سلام"؛ فهما إذن يعتبران مفتاحا إجرائيا للولوج إلى مداخل النص، وليس معـنى هـذا أن صـورة الغـلاف لأي عمـل أدبي تعد مفتاحا للولوج في أعماق النص ومضامينه، فقد تكون صورة غير دالة، أي لا تحمل شفرات غير لسانية.

3- سيميائية الاسماء:

للتسـمية في التراث العربي سمات ودلالات تحدث عنها قديما الجاحظ في أكثر مـن موضع[11]. ولذلك استدعى اهتمامي أسماء الشخصيات التي لاشك أنها اختيرت عن قصـد، بحيـث تشـير إلى دلالة معينة يوحي بها الاسم بعد أن تتضح صورته في ذهن المتلقـي. فاسـم مـثل "سكينة"، لا ريب أنه يوحي إلى أن المسمى يتسم بالسكينة والوقار والهيـبة... واسـم كـ"عبد الودود" و"عبد الباقي" و" عبد الحميد" -وكلها مركبة من "عبد" واسم من أسماء الله الحسنى- تدل ولا شك على أن هذه الاسماء الدينية لها مقام في الوسط الاجتماعي. ونريد الآن أن نتعمق أكثر حول سيميائية الاسماء؛ ونتوقف لدى أهم شخصيات الرواية لنحاول تحليل بنية دلالة الاسماء.

1- الحـاج عـبد الـودود رضوان: إن شخص عبد الودود هو صاحب المقام الأول في الحضور السردي بالقياس إلى كل الشخصيات الأخرى، حيث بلغ تواتره: 154 مرة.

وإن "الـودود" صـيغة فعـول" مـن صيغ المبالغة، وهو من أسماء الله حسنى.

والـودود: من ودّ، يَوَدّ، وَدّا، ووَدَادًا، ومَوَدَّةً، والوَدّ: الحب، والوَدُودُ: الكثير الحب، وهو المحبوب، يقال: هو ودود، وهي ودود.

واللقـب: رضـوان: مـن رضـا، رضوا: غلبه في الرضاء، ففيه دلالة على الرضا أو الارتضـاء، وفيه فأل حسن ترتاح النفس إلى سماعه. ومنه -كذلك- رضوان (بضم الراء وكسرها). والرضوان: الاقتناع بالشيء وقبوله عن طيب نفس. وإن شخصية "عبد الودود رضـوان" لها قابلية للرضا والاقتناع والحب. فقد غيرت زوجته سكينة وبعض رجالات القـرية سلوك الأنانية، والكبرياء والظلم فيه، وأضحى رجلا سويا في نهاية المطاف، بأن

تأســف وحزن –مثلا– على قتل "عرفان جراد"[12] : وتمتم في ألم حقيقي" قائلا: "رحم الله عرفان المسكين... لقد ظلمته".[13]

2- ســكينة: لفــظ "سكينة" من مادة "سكن"، يقال: سكن إليه: ارتاح واطمأن ووقر. ومنه الســكن، وهــو كــل ما يستأنس به ويسكن إليه. ففي معنى السكينة الارتياح والطمأنينة والوقــار والمهابة. وكلها تدل على أن هذه الشخصية قد وفرت الهدوء والارتياح والأمن والطمأنينة لزوجها، وجنبت القرية أهوال الفتنة والدمار. ولذلك استحقت الثناء والشكر من قــبل الزوج عبد الودود الذي قال يوما:"... هذا حق... لم أذق طعم الحب الحقيقي إلا يوم أن رأيتك... عند ذاك أيقنت أن الحب شيء كبير... فوق الكبرياء... فوق كل شيء... يا حمامة السلام".[14]

فاسم "سكينة" إذن موظف لوظيفة سردية جمالية و اجتماعية.

3-جلال الدين(طالب أزهري): هذا الاسم مركب إضافي، يحس العربي بان لفظ"جلال" لا بــد أن تكون له صلة بالجلال الذي من معانيه العظمة و التنزه و الرفعة.و قد أضيف إلى "الديــن" فكان هذا الاسم رفيع الشأن، عالي الهمة، فقد أخذ جلال الدين يهاجم–و هو على منبر مسجد القرية الكبير–"الذين لا يبرون بالفقراء، و ينعي على الأخلاق الفاسدة، و على الظلم الذي ملأ السماء و الأرض..."[15]

فكان خطابه وقعا على الظلم و الظالمين، و فاتحة خير على أهل القرية.

4-الشــيخ عبد الباقي(شيخ الطريقة الصوفية): هذا الاسم مركب إضافي، يتألف من لفظ "عــبد" المضاف إلى "الباقي"و الباقي: من أسماء الله الحسنى، و هو مشتق من البقاء الذي يراد به: الثابت الخالد، وهو لله تعالى وحده. و الباقي : اسم فاعل، وهو من حيث مخرجه ســهل الــنطق علــى العربي، لطيف الصوت عند التهجي، عذب السمع عند التلفظ، لأن الصيغة في حد ذاتها جارية على الألسن، سارية في المسامع، حسنة لدى الأذواق. و لعل بعض ذلك ما جعل هذا الاسم يجري على كل لسان، و يسري في كل جنان، و يستمع إليه كل رجال القرية، و كلامه مسموع معمول به.

و الروائـــي يومـــئ بهــذه التسمية إلى أن صاحبها رأيه ثابت باق، و قد التزم بـــالوعظ و الإرشـــاد، و دعا إلى الصلح من أول ظهور على مسرح الأحداث حتى تم له ذلك في النهاية.

4-إشكالية الشخصية الرئيسية و تواترها في النص السردي:

الكثيرمن الدارسين للرواية والقصة يحكم برئيسية الشخصية على علاقتها بغيرها وتأثـــيرها فيها، وتأثرها بها، لا على اعتبارات إحصائية وإنما، يستخدم الإحصاء لترتيب الشخصيات داخل عمل سردي ما، وهو مفيد و لا شك في التحليل الروائي.

وفي ترتيب الأهمية للشخصيات يستحسن إبعاد التواتر من الاعتبار، حيث إن شخصية مـــثل، جلال الدين على عدم بروزها كثيرا على الحيز النصي، إلا أنها تتسم بالديناميـة في مجـــرى المســـار الســـردي، بينما شخصية أم ربيع-مثلا- تصنف إحصائيا في المرتبة السادســـة، ومـــع ذلك لم يكن لها كبير الشأن في السياق السردي. من أجل ذلك نميل في تحديد مركزية الشخصية إلى الوظيفة المسندة إليها في النص السردي.

وقـــد اتضـــح لنا من خلال الوظائف التي قامت بها الشخصيات في نص"حمامة سلام" أن ترتيبها يمكن أن يكون كالآتي:

المرتبة الأولى: الحاج عبد الودود رضوان، وردت بتواتر بلغ 154 مرة.

المرتبة الثانية: سكينة بنت الشيخ عبد الحميد عوض، وردت 66 مرة.

المرتبة الثالثة: ربيع بن الحاج عبد الودود، وردت 55 مرة.

المرتبة الرابعة: الشيخ عبد الباقي، وردت بتواتر بلغ 18 مرة.

المرتبة الخامسة: الشيخ عبد الحميد عوض، وردت 10 مرات.

المرتبة السادسة: أم ربيع، وردت 08 مرات.

المرتـــبة الســـابعة: جـــلال الدين، وردت 6 مرات. ونزعم أن هذه الشخصيات المذكورة مركـــزية مـــع تفاوت فيها في الأهمية الوظائفية.ولعل ما يزيد من التباين بين الشخصيات وتجســـيد إحساســـها بـــالوحدة و الضـــياع والخوف، و بالتالي تقاطع مصائرها الثوابت. والرموز التي استخدمها الروائي أضفت على الرواية أبعادا فكرية عميقة.

وليس من اليسير تتبع شخصيات الرواية التي تزيد عن عشرين شخصية تواترت في نص سردي ولو أنه متوسط الحجم. و كان أن استخدمت الإحصاء لأصل إلى مراتب الشخصـــيات وتواتـــر ذكـــرها عبر هذا النص السردي الذي يقع في إحدى عشرة و مائة صفحة. و لقد أبعدت حين الإحصاء الضمائر العائدة على الشخصيات، بل أبعدت الضمائر المعيـــنة لها صراحة، نحو: أنا، أنت، أنت، هي...، وقد أهملت هذه الضمائر عن قصد، ولـــو أنها تقوم مقام الاسم في وظيفته النحوية، و ذلك لأننا لو اعتمدنا الضمائر المتصلة، فإنها تجرنا إلى إحصاء الضمائر المتصلة، وحينئذ فإن الصعوبة الإحصائية ستزداد، و لن يضـــبط الإحصاء إلا حاسوب يبرمج لهذا الغرض، و أبعدت كذلك الصفات التهجينية عند الذم، و الصفات التعظيمية عند المدح.

5-الوظائف السردية للشخصيات:

إن أكـــثر الشخصـــيات تأثـــرا هي شخصية "سكينة" التي أسندت إليها جملة من الوظائف السردية في هذا النص، و لعل أهمها:

1-الحـــب و الغواية: يتجسد ذلك في هيامها بـــ"ربيع" بن عبد الودود أولا، ثم قبولها ثانية بعـــبد الـــودود زوجـــا لها. أما الوظيفة السردية المركزية التي اضطلعت بها، فكانت أن أوقعت"ربيع" في شباكها،... فهي فاعلة متفاعلة معا.

2-النصـــح: فقد كانت وراء موقف زوجها (عبد الودود) المعادي لأهل لقرية، ناصحة له بالابـــتعاد عن إشعال نار الفتنة، و الميل إلى فعل الخير من أجل إسعاد نفسه و إسعاد أهل قريته. ومن جملة ما جاء على لسانها:

1- "لمـــاذا لا ترحمني و ترحم نفسك؟ لسنا في حاجة إلى المال، لكننا في حاجة ماسة إلى الكرامة".(16)

2- "إن اليد التي أتلفت زرعك تستطيع أن تشتط في إجرامها".(17)

3- "مـــاذا لو اعتبروني وسيطة من أجلهم... من أجلك، من أجل الحياة السعيدة التي نحلم بها... من أجل أن يسود السلام هذه القرية التعسة وأهلها المساكين، إن انتصارك للمعاني الطيـــبة هـــو الكرامة بعينها، أتوسل إليك يا حاج، أنا لا أنام الليل يا حاج. إن لم تشأ أن ترحمهم فلترحمني..."(18)

6-البناء الخارجي للشخصيات:

يتسم هذا النص السردي برسم الملامح الخارجية، فقد رسمت بعض الشخصيات رسما دقيقا حتى كأن النص ارتد إلى صورة قد رسمت بيد رسام، فلم يترك وجها، و لا فما و لا شعرا، و لا لونا، و لا قامة، و لا صوتا و لا عينا و لا أطرافا إلا رسم بشيء من التفصيل.

ولنـــتأمل كيف كان البناء الخارجي للشخصية المركزية الأولى، و هي شخصية الحـــاج عـــبد الودود، حيث ركز النص عليه اهتماما شديدا، فقد تابع النص، شكل وجهه وجبهـــته، و أنفه وعينيه... قبل أن يتدرج إلى سلوكه و مزاجه، و أول شيء قدمه النص بـــه، أنـــه يقـــول:"هو ذو أنف معقوف، ورأس كبيرة، و جبهة عريضة، و عينين نفاذتين يظللهمـــا حاجـــبان كثـــيفان و عود قصير مكنز يتدرج به في بطء وتأن".[19] لعله يوحي بقولـــه:"رأس كبيرة" إلى قوة تدبره و تفكيره. و بقوله: "و عينين نفاذتين يظللهما حاجبان كثيفان" إلى دقة نظره و نفاذ بصيرته، و عظيم هيبته و حنكته.

فمـــن هـــذا التقديم لهذه الشخصية نعرف كثيرا من ملامحها. و نجد النص يولع كثيرا برسم ملامح الشخصيات ، إذ وصف "سكينة" بأنها"كانت تلبس ثيابا ضافية، وتحيط وجههـــا القمـــري بشال أسود، فيبرز فتنتها كأروع ما تكون الفتنة".[20] وقد "قالت سكينة بصـــوت مـــنغوم حلو: بل ستشرب الليمون من يدي".[21] ويقول:" أذكر أني رأيتك وأنت طفلـــة صـــغيرة في السابعة من عمرك... كنت تذهبين إلى المدرسة، وكنت تلبيس فستانا أحمر، لكن لم تكوني على هذه الصورة من الجمال"[22]

فـــي هذه النصوص تصور خارجي لمظهر سكينة ذات الصورة البديعة الفاتنة. ونجـــد رســـما لشخص والد سكينة الشيخ عبد الحميد عوض، يقول: " ومدّ عبد الحميد يدا مـــرتجفة، وكان وجهه الأسمر النحيل، وعيناه الواسعتان القلقتان تفيضان بالحب والبراءة، وعمامته البيضاء.. كل شيء فيه كان يشرق ويومض بالفرحة".[23]

يفهم من هذه الأوصاف أن الرجل من أسرة متواضعة.

ونـــال ربـــيع هو الأخر اهتمام الكاتب فرسم صورته، ووصفه على لسان فاتنته ســـكينة التي "تحلم بيوم المنى، وليس في ذهنها سوى صورة ربيع الضخم، ...الطيب... الـــذي تأســـرها سذاجته وعنفه وقلبه الأبيض... ويده الخشنة.[24] ويقول: " ...و أفاق من

دهشـــته على ذراعين عاريين ... يطوقان عنقه الغليظ الأسمر الذي لوحته شمس الحقول الساطعة، وأخذت تمسح وجهها المبلل بالدموع في جلبابه الصوفي الخشن".(25)

توحـــي هذه الأوصاف بأن "ربيع" رجل قوي البنية الجسمية، وأنه ارتبط بفلاحة الأرض.

7- البناء الداخلي للشخصيات:

استطاع نجيب الكيلاني أن يغوص في أعماق نفسيات شخصياته؛ فيرسم عالمها الداخلي دون أن يتورط في التناقضات، ويركز على بعض الشخصيات الرئيسة في الرواية.

أ - **الحاج عبد الودود رضوان:** أول ما بدا لنا من حال تلك الشخصيات رسم شخصية عبد الودود، حيث قدم على أنه فطن حكيم...، فهو:"يفحص الطريق، مخافة أن يتفجر من تحـــت قدمـــيه خطـــر غامض، إنه دائما في حالة تيقظ واستعداد " دقيق حكيم" يتخيل كل الاحتمالات قبل أن يقع فريسة مأزق من المآزق".(26)

وقد كانت هذه الشخصية قوية رغم الصراع القوي المرير المتكرر من الفلاحين المتمردين الرافضين دفع مستحقات الإيجار. كما ترسم شخصية عبد الودود على أن شيئا لم يك أحب إلـــيها من العنف والغضب والبطش، حيث إن غضب عبد الودود انصب أول الأمر على خيبة ولده ربيع الذي لا يحسن اختيار الزوجة المناسبة، ولا يجيد التفكير، حيث صاح "في اشمئزاز وضيق: هل جننت؟ ما الذي يعجبك في سكينة؟... أكمل أيها الغبي... ثم اقترب من ابنه وأمسكه من طوقه في عنف وهتف: انظر أمامك. وسدد ربيع نظرات حزينة إلى أمه الدميمة..."(27)، إنه يصور انفعال كل من عبد الودود وولده ربيع، فقد بدا الأول ثائرا والثاني حزينا يائسا.

ويكـــاد الانفعال لا يفارق هذه الشخصية، فها هو يثور في وجه ولده (ربيع)، وقد دق "الأرض في غيظ: أيها الكلب تريد أن تتزوج صعلوكة مثلك؟"(28)

وبعـــبارة أخرى فإن انفعال عبد الودود وعنفه لا يلبثان حتى يعودا من جديد، وقد هدأ غضـــبه وارتاحـــت نفسه لما أن تزوج سكينة، فقد أدخلت على نفسه سعادة وبهجة؛ "لقد طوقها بذراعيه وضحك ملء شدقيه، وقال: لا تخافي يا قطتي الصغيرة".(29)

وشــــاء الكاتب أن يبدل سلوك الحاج تدريجيا على يد سكينة، والشيخ عبد الباقي اللذين طالما نصحاه بأن يقبل الصلح، ويعزف عن استغلال الفلاحين. يقول" تضايق بادئ الأمر لجرأة الفلاحين ونواياهم الشريرة، لكن شعر بارتياح انصرافهم عن الغدر به، فطابت نفسه لكلمات الشيخ، ووجد نفسه، يقارن بين كلمات سكينة ذات مساء وكلمات الشيخ عبد الباقي بالأمس القريب".(30)

ب- ربيع: أول ما طالعنا الكاتب من رسم لهذه الشخصية أنها مماثلة لشخصية الأب (عبد الــودود)، وقد تكون مطابقة في كثير من الأحيان، حيث "إن ربيع يكاد يكون نسخة كاملة لشخصية أبيه.. إنه يشبهه في أفكاره وصرامته ومنطقه المادي الجاف".(31)

ويصـــور لـــنا جانــبا آخر من هذه الشخصية الرقيقة التي اكتوت بنار حب عاصف جـــارف، فقــد أحب "سكينة بنت الشيخ عبد الحميد عوض، وهي فتاة جميلة في عنفوان الشـــباب، وقد ملأت حياته بهجة وحبورا، يقول الكاتب: " ويمتلئ سعادة وحيوية، ويتردد بين البيت والغيط في خفة الطائر المرح، ويخيل إليه أنه لا يمس الأرض بقدميه، بل يحلق في سماء زرقاء".(32)

والـــنص الســـردي هنا صريح في أن ربيع، لم يعرف الحب قبل سكينة، ولذلك بدت ســـذاجته فـــي أكـــثر من موقف، فقد ارتجف جسده كله، وارتعشت شفته السفلى، وسادت وجهه حمرة طارئة، وهم أن يفعل شيئا، لكنه لم يستطع، لم يتعود هذه المواقف المتوترة."(33) وقد انتهى حب سكينة لربيع بزواجها من أبيه عبد الودود في مرحلة أخرى. ومن المألوف في الأعمال الروائية بأن الحب المبكر ينتهي في معظم الأحوال، بينمـــا الحب المتأخر هو الـــذي يفضي إلى وصال، ولم تكن وظيفة السرد هنا، ولا وظيفة البناء الداخلي لشخصية ربيع وسكينة بدعا، مما نجده في الأعمال السردية الكلاسيكية البناء والمنهج.

جـــ-سكينة: أولى الكاتب اهتماما لهذه الشخصية، وأرادها أن تكون شخصية سوية تارة، وللإثارة تارة أخرى، وقد بنى داخل هذه الشخصية على مبدأ الحب، وهي كأي فتاة تطمع فـــي الـــزواج مـــن غني أو ميسور الحال. وقدمها الكاتب مصورا شخصيتها وجانبا من حـــياتها، فهي: " جريئة حتى لتحسب جرأتها انحلالا، متحفظة ومبتذلة في آن واحد، ترى

مـــنها الجانب الذي تود هي أن تبرزه... تربت يتيمة من الأم؛ وقاست العذاب مع زوجة الأب...ولم يكن غريبا أن تنصب شباكها لـــ (ربيع) بالذات".[34]

واســـتطاع الروائي أن يصور لنا بدقة تفنن سكينة في كسب ود ربيع وجعله أسير هواها، ومن ذلك:

1- "... فشـــهقت فـــي استغراب، ودقت على صدرها الناهد، وهتفت: يا خبر. أنت سيد الرجال، أنت دنياي يا ربيع".[35]

2- "... أرخت أهدابها في دلال، وأطرقت حياء، ثم قالت: الظروف لم تتهيأ بعد".[36].

3- "...فأبدت غضبا مصطنعا، ثم غمزت بإحدى عينيها في إغراء... وضغطت على يده في ود، فسرى الخدر في انحاء جسمه الضخم".[37]

والخلاصة: أن الكاتب استطاع أن يغوص في أعماق الشخصيات فيصور ما يختلج في نفوسها من حب وكره، وفرح وحزن. وأقول: إنني ارتأيت في هذا البحث أن أعرض إلى تحلـــيل البنية الداخلية لهذه الشخصيات بقليل من الاختصار، وكنت أقف موقفا وسطا في هـــذا الأمر، فلا أقتصر على دراسة شخصية واحدة، كما أنني لا أريد أن أنساق وراء كل الشخصيات أتابع بناءها الداخلي. فمثل هذا العمل لو نهجته لتحول هذا المبحث إلى فصل، وتحولـــت المداخلـــة إلى فصول، وذلك ما لم نهدف إليه. وربما يسعفني الحظ لإتمام هذا العمل وإخراجه في بحث آخر موسع.

وفـــي الختام نرى أن الدكتور نجيب الكيلاني قد زود مكتبة الأدب الإسلامي بعدد من رواياتـــه التي يبرز فيها التصور الإسلامي للحياة، وتميزت بالكلمة الطيبة والفن الصادق، والتصـــوير الموحي والإشارات الذكية الدالة. وكان منها هذا العمل الذي بين أيدينا. ويقول عنه أحد الباحثين أنه في رواياته أكثر عمقا ووضوحا، وأكثر أصالة، وأصدق تعبيرا وفنا.[38]

بقـــي أن نذكـــر أن الكيلانـــي قـــد اســـتعمل الفصحى عموما وأحيانا يستخدم العامية المصـــرية، إما عن طريق التراكيب أو عن طريق الألفاظ. واستخدم كذلك أسلوب السرد المباشر، فكان يتكلم باسم بطل القصة أو الشخصية المركزية، ويروي الحوادث ويفسرها، ويعلـــق علـــيها. ولكـــنه أيضا استخدم أسلوب الحوار كثيرا. واستخدم أسلوب المراسلة، وطـــرح كثيرا من القضايا، واستخدم هذه الأساليب ليتحدث عن كثير من المسائل الشائكة التي يبتغي لها حلولا.

الهوامش:

(1) يــنظر محمد حسن بريغش، دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1984، ص 35.

(2) ينظر المرجع السابق، ص 36.

(3) عبد الرحمن طنكول، خطاب الكتابة و كتابة الخطاب في رواية مجنون الألم، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بفاس، العدد 9، 1987، ص135.

(4) يــنظر جميل حمداوي، السيميوطيقا و العنونة، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 25، العدد 3، مارس 1997 ، ص 97.

(5) روبــرت شــولز (ســيمياء النص الشعري)،اللغة و الخطاب الأدبي، ترجمة و اختيار سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1993 ، ص 161

(6) محمد مفتاح، دينامية النص،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، المغرب، ط1،87ص 72.

(7) نجيب الكيلاني، رواية "حمامة سلام"، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، 1997،ص 110.

(8) م.س، ص 19.

(9) م.س، ص20.

(10) GERAD, GENETE, Seuil, ed seuil, coll, poetique Paris, 1987, p6

(11) يــنظر أبو عثمان الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969، 324/1-327، 1984/2-186.

(12) عــرفان جــراد: فــلاح فقير، قتل غدرا على يد رجال الحاج عبد الودود، لأنه سخط على تصرفات الحاج. ينظر الرواية، ص 81.

(13) الرواية، ص111.

(14) م.س، ص 110 .

(15) م.س، ص 19 .

(16) م.س، ص 91 .

(17) م.س، ص 93 .

(18) م.س، ص 59.

(19) م.س، ص 23 .

(20) م.س، ص 35 .

(21) م.س، ص37 .

(22) م.س، ص 37.

(23) م.س، ص55.

(24)م.س، ص 56 .

(25) م.س، ص18.

(26) م.س، ص6.

(27) م.س، ص8،7 .

(28) م.س، ص9.

(29) م.س، ص90.

(30) م.س، ص105.

(31) م.س، ص6.

(32) م.س، ص12.

(33) م.س، ص15.

(34) م.س، ص7.

(35) م.س، ص16.

(36)م.س، ص16.

(37) م.س، ص34.

(38) ينظر محمد حسن بريغش، في الأدب الإسلامي المعاصر، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1، 1998، ص145.